(١٠)

غدرٌ.. ونصرٌ.. وعَفْو!!

بقيت هواجس السوء تراود قريشاً طول إقامة رسول الله ﷺ وأصحابه في الحديبية ، فعلى الرغم من توالي الرسل بينهم وبين المسلمين ، وعلى الرغم من تأكيد رسول الله ﷺ أنهم لم يأتوا لقتال وإنما جاءوا معتمرين ، فإن حقد قريش على المسلمين ، وَوَجْدَها لِما أصابها في حروبها معهم دفعها إلى محاولة الغدر بالنبي ﷺ وأصحابه .

وكان من أمرها في ذلك أن أرسلت خمسين رجلاً يقودهم مِكْرَزُ بن حَفْص بن الأخْيف ، لعلهم أن يصيبوا من المسلمين غِرَّةً أو يأسروا منهم أحداً. وكان حرس رسول الله ليلتئذٍ محمد ابن مَسْلَمة ، رضي الله عنه ، فأخذهم محمد بن مسلمة وأتى بهم رسول الله ﷺ ، فأمر النبي بحبسهم. وكان قائدهم مكرز بن حفص قد فرَّ وعاد إلى قريش فأخبرهم بهزيمته وأصحابه وبأسر المسلمين لهم جميعاً !

وحرَّض رجالٌ قريشاً على محاولة تخليص أسراهم من أيدي المسلمين فخرج جمع منهم إلى الحديبية ، وتراموا هم

والمسلمون بالنبل والحجارة ، فقتلوا رجلاً من المسلمين واحداً يقال له ابن زُنَيْم ، وأسر المسلمون من المشركين اثني عشر رجلاً ، وفرَّ الباقون هاربين !

وفي أثناء المفاوضة بين رسول الله ﷺ وسهيل بن عمرو ـ وسيأتي خبرها ـ طلع على المسلمين ثلاثون شاباً عليهم السلاح فثاروا في وجوه المسلمين ، فدعا عليهم رسول الله ، ﷺ ، فأخذ الله بسمعهم وأبصارهم ، فقام المسلمون إليهم ، فأسروهم جميعاً. وروى الإمامان مسلم وأحمد بن حنبل وغيرهما عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أنه لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ ، وأصحابه ثمانون رجلاً من أهل مكة في السلاح ، من قبل جبل التنعيم ، يريدون غِرَّةَ رسول الله ، ﷺ ، فدعا عليهم رسول الله ﷺ ، فأخذوا ؛ فعفا ﷺ عنهم[1].

وروى الإمامان مسلم وأحمد وغيرهما ، عن سلمة ابن الأكوع رضي الله عنه قال : « إن المشركين من أهل مكة راسلونا في الصلح ، فلما اصطلحنا واختلط بعضنا ببعض ، أتيت شجرة فاضطجعت في ظلها (قوله: اصطلحنا يعني تبين أن الصلح واقع ، لأنه لم يكن قد تم صلح بعد) فأتاني أربعة من مشركي

---

(١) في مسلم الحديث رقم ١٨٠٨، وفي مسند أحمد برقم ١٢٢٥٢.

أهل مكة فجعلوا يقعون في رسول الله ﷺ ، (أي يذكرونه بسوء) فأبْغِضُهم ، وتحولت إلى شجرة أخرى ، فعلقوا سلاحهم واضطجعوا ، فبينما هم كذلك إذ نادى منادٍ من أسفل الوادي : يا للمهاجرين ، قتل ابن زُنيْم[1] ! فاخترطت سيفي (أخرجته من غِمْده وجعلته في يدي) فاشتددت على أولئك الأربعة وهم رقود ، فأخذت سلاحهم وجعلته في يدي ، ثم قلت : والذي كرَّم وجه محمد ﷺ ، لا يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذي فيه عينيه ! ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ ، وجاء عمي عامر برجل من المشركين يقوده ، حتى وقفناه على رسول الله ﷺ ، فقال :« دعوهم يكون لهم بدء الفجور وَثَنَاهُ »(أي دعوا لهم الإثم والعدوان أوَّلُه وثانيه ، وخلّوا لنا الوفاء والعفو والصفح) . فعفا عنهم رسول الله ﷺ[2] .

وفي بعض روايات حديث الثلاثين شاباً الذَّين أرادوا مهاجمة المسلمين في أثناء المفاوضات بين النبي ﷺ ، وبين

---

(١) ذكره ابن حجر في الإصابة جـ١ ص٥٣٣ الترجمة رقم ٢٨١٩، فقال : « زنيم غير منسوب، قال الطبري له صحبة، وذكر قتل المشركين إياه يوم الحديبية وأشار إلى أن الذي في مسلم ١٨٠٧من حديث سلمة بن الأكوع ابن زنيم». وهو كذلك في المسند ١٦٦٣٣.

(٢) رواه مسلم عن سلمة بن الأكوع برقم ١٨٠٧؛ ورواه أحمد عنه برقم ١٦٦٣٣ بلفظ فيه اختلاف يسير.

سهيل بن عمرو أن رسول الله ﷺ سألهم : « هل جئتم في عهد أحد ؟ وهل جعل لكم أحد أماناً؟ ». فقالوا : « لا ». فخلّى رسول الله ﷺ سبيلهم ! [1]

ولما أسر المسلمون اثني عشر فارساً من القرشيين الذّين قُتِلَ في أثناء مواجهتهم ابن زُنَيْم ، قال لهم رسول الله ﷺ ، « هل لكم عهد أو ذمة »؟[2]

فهذه أربع محاولات من المشركين ليغدروا بالمسلمين ، أو يصيبوا منهم غِرَّةً ، ردهم الله في كل واحدة منها خاسرين ، وأسر المسلمون منهم مائة واثنين وسبعين رجلاً ، بل مائة وسبعة وسبعين رجلاً (بإضافة الأربعة الذين أسرهم سلمة ابن الأكوع ، والرجل الذي أسره عمه عامر ، رضي الله عنهما).

ورسول الله ﷺ عند كل نصر للمسلمين على من أرادوا بهم الغدر والخيانة ، يأمر بالعفو عن المشركين ، ويسألهم عن ذمتهم وعهدهم ، وهم يقولون ألاّ ذمة لهم ولا عهد ، أي إن رسول الله وأصحابه لا لوم عليهم ولا تثريب إن هم اعتبروهم أسرى ، أو قتلوهم بغدرهم ، فالقوم كانوا محاربين للقتال

---

(١) رواه أحمد في مسنده عن عبد الله بن مغفل المزني، الحديث رقم١٦٩٢٣.

(٢) حديث عبد الله بن مغفل، السابق .

أتوا. ولكن خلق الإسلام ، الذي بعث رسول الله ﷺ ليتمم محاسنه ، يدعوه إلى العفو عنهم ، وإلى أن يخلِّيَ سبيلهم وسط دهشة المسلمين وتعجبهم من صنيع نبيّهم ، الذي آلى على نفسه وأصحابه أنهم لم يأتوا لقتال ، وإنما قصدوا البيت الحرام وحده .

وفي هذه الأثناء بلغ رسول الله ﷺ أن عثمان وعشرة من المسلمين كانوا قد دخلوا في أمانه[1] ـ بإذن رسول الله ﷺ ـ مَكَّةَ قد قُتِلوا . فغضب لذلك رسول الله ﷺ ، وقال : «لا نَبْرحُ حتى نناجز القوم»[2] ، ودعا أصحابه إلى البيعة .

* * *

(١) أي أمان عثمان الذي دخل به مكة وهو الأمان الذي أعطاه إياه أبان ابن سعيد بن العاص كما في مغازي الواقدي، جـ٢ ص٦٠١.

(٢) ابن هشام، السيرة، بهامش الروض الأنف للسهيلي، ط الجمالية بمصر ١٩١٤، جـ٢ ص ٢٢٩. وقد ذكره الحافظ ابن حجر في فتح الباري، جـ ٧ ص٤٤٨؛ وأخرجه الطبري عن عبد الله بن أبي بكر، جـ٢٦ ص٥٤.